خُطًى بِلا أَثَرٍ

- رِحلة قادها الحُلْم، وابتلعها المَدى -

قصة قصيرة

خديجة محمود عوض

قصة قصيرة

بِقلم: خديجة محمود عوض

- خُطًى بلا أَثَرٍ

” رحلةٌ قادها الحُلْم، وابتلعها المَدىٰ “

إهداء

إلىٰ الـذين عَبروا البَـحر بِأحلامهم... فعاد البحر ولم يعودوا.

إلى الأرواحِ التي تَناثرَت علىٰ ضِفـاف الأمـلِ، تَبحث عن حياةٍ أقلِ خيبة، ومـوتٍ أكثر كرامـةٍ.

إلىٰ كُلِّ قلـبٍ هَاجَر قسرًا قبل أن يهاجر جسدًا.

إلى أمي، التي قالت لي يـومًا: أنتِ أعظَم مَن مَسك قلمًا وكتب عن الألَم . /

وإلى كل قارئٍ يرىٰ في الحروفِ مرآةً لوجعه.. هذه القصة لكَ.

البحر

البحر... مرآة الغياب، يُخفي في عمقه أسرار الراحلين، ويُجيد الصمت كأنّه يُصغي لكل بـوحٍ خرج من فم الحالمين.

ما علت أمواجه يومًا إلا وابتلعت حلمًا، أو ودّعت أمنيةً لم تكتمل.

هو الوطن المؤقت، والمقبرة المفتوحة، التي تستقبل الأحلام بحفاوة بالغة.

نبكيه أم نلوذ به؟

لا ندري، لكننا –رغم كل شيء– نُبحر.

- "أتعلمُ أنّ البحر ليس مجرد لجّةٍ زرقاء تبتلع الأجساد؟ بل هو فمٌ هائلٌ يلتهم الأحلامَ الغضة، والنداءاتِ المبحوحة، والخفقاتِ الأخيرة لقلوبٍ تاقت إلى الحياة."

همس بِها يونُس، وهو شابٌ في أواخر العقد الثاني من عمره، غريبٌ عن هذه الديار الشاسعة المُسماة بالقاهرةِ حديثًا – المحروسة قديمًا-.. صوته كَان خافتًا كأنّهُ يُناجي طيفًا راحِلًا، وعيناه المثقلتان بهمومِ الغُربة شاخصتان نحو سقفِ الغُرفةِ الصفّية، حيثُ تَتراقص خيُوط الغبار الذهبية في شعاعِ الشمس المُتَسلل.. أمامه، يجلس صديقه نوح، الشاب الذي تستقر في روحه المُنهكة نفس الأسئلة التي تنخر في رأس يونس، وتتوق أذناه لِسماع خبر يُلقي بالهمومِ عن كاهله.. قال له وهو يتنهد:

- "كأنّ أقدارنا نُقشت على حواشي الحياة، لا في متنها."

أضاف يونس بعد صمتٍ أثقل من سنين عمره القليلة..

- "نذرع الدروب بحثًا عن كسرة أمل، ونسعىٰ خَلف كل وميضٍ واعد، فإذا بنا نكتشف أنّه ليس سوى سرابٍ خادع، يتبخر عند أول تماسٍ مع قسوةِ الواقعِ."

كانت حارة العطارة كأنها لوحة مرسومة بألوانٍ باهتة مُستنزفة من الحياة والروح.. أصوات الباعة المتداخلة تشبه نوتات موسيقية عشوائية، بعضها يعلو بنبرةٍ ترويجية، وبعضها يخور من التعب، رائحة الكمون الذهبي تتصاعد من جرّة كبيرة، تختلط مع عبق القرفة الحارّة، وكأنها تعويذةٌ ضدّ فقر المكان.

وقف يونس خلف المنضدة، يداه تفركان حبّات الهيل بين أصابعه، بينما كان زوج عمته يحكي للزبائن عن فوائد "المُرّ" للمعدة، وعن زيت الحبة السوداء الذي يشفي كل داءٍ إلا الموت.. نظر يونس إلى وجه الزبون العجوز، عيناه غائرتان، يده ترتجف وهو يدفع نقوده البالية.. رُبَّما كان يشتري أملًا زائفًا في شفاءٍ لن يأتي.

وفي الزاوية، كان نوح ينتظره، جالسًا على كرسيّ مكسور، يمسح بكم قميصه المتسخ بعض الشحم العالق على وجهه.
نظر إلى يونس وقال بضحكةٍ مجهدة:

- "يا بائع الروائح!
- متى ستفتح دكّانك الخاص وتخلّصنا من رائحة الشحم هذه؟"

أجاب يونس وهو يغلف له بعض اليانسون في ورقة بنيّة:

- "عندما تتعلم أن تغسل وجهك قبل المجيء إليّ."

ضحكا معًا، لكن الضحكة حملت مرارة السؤال غير الملفوظ:
"هل سيبقى مصيرنا محصورًا بين رائحة العطارة والشحم؟

كان يونس قد نزح إلى القاهرة بحثًا عن وظيفةٍ تليق بشهادته العلمية، لكنّ المدينة العملاقة ابتلعت أحلامه كما تبتلع الحشود وجوه

الغرباء.. طال بـهِ البحث عبثًا، حتى استسلم مؤقتًا وعمل مُعينًا لزوج عمته في مَحلِ العطارة، يُنَظِم الروائح ويستمع لحكايات الزبائن، بينما كانت القصص التي تختمر في ذهنهِ تنتظر يومًا ترى فيه النور.. فهو كاتبٌ يحكي القصص الواقعية للعابرين الذين أنهكتهم الحياة، وفي ليالي وحدتهِ الطويلة في مسكنهِ المتواضع، كان يـونس يشعر بغربةٍ مضاعفة، غربةِ المكان، وغُربةِ الروح.. وصله بريد من دار نشر كان تواصل معها لنشر بعض أعماله الأدبية، للانتفاع بها وجنى بعض المال؛ ولكن الرد كان صاعقًا له؛ فالأعمال الأدبيَّة التي كتبها بقلبهِ وقلمه، لَن تنصفه أيضًا!

أمَّـا عن نـوح، فكانت حياته سلسلةً من الدروس القاسية التي لا ترحم، منذُ أن أدركَ ما يحدث حوله، وَجدَ نفسه في خضم معركةٍ يوميةٍ ضد الفقر والنسيان، كان والده مُجرد ظلٍ يَمُر كَضيفٍ بين جدرانِ بيتهم، ثم يختفي لا يعلم طريقه أحد.

يداه – تلك اليدان اللتان لم تعرفا سوى الشحم والصدأ – تحكيان قصةً مختلفةً عن عمره..

حيثُ أنه في العاشرة، كان قد تعلم كيف يفتح محرك سيارةٍ أسرع من وقتِ استيعابه لجدول الضرب، وفي الخامسة عشرة، صارت كفاه متشققتين كأرضٍ جدباء، تحملان خطوطًا تشبه الخرائط التي قد تقود إلى حياةٍ أفضل... لو كان يعرف كيف يقرأها..

رُبّمـا ما كان يُميزه بينَ الكثير من الصِبية الذين يعملون معه في الورشة، هو إصراره، ورجاحة عقله؛ فهو كان فطنًا، يعلم موضع العُطل دون فك وتركيب.. كان يحمل في صدرهِ، أحلامًا تأمل أن

تطير كالعصافير، وإصرارًا، كنبتةٍ خرجت من بينَ الصخر، رُبَّما ورث ذلك عنه أمـهِ، تِلكَ المرأة التي كانت تُخبز وتُبيع العيش في حارتهم، وتخبئ دموعها بين عجينتها؛ كي لا يراها أولادها.

وفي نهاية يومهما الطويل، كان يونس ونوح يلتقيان على أحد المقاهي الشعبية، جمعهما يأسٌ مشترك، ورغبةٌ دَفينة في التغيير.. سرت بينهما أحاديث خافتة عن "الضفة الأخرى"، عن أرضٍ موعودة تروي ظمأ الطموح، وتَمنح بعض الكرامةِ المفقودة.

كما أنَّ يونس كان له دافعًا آخر، قوّيًا كجذور شجرةٍ عتيقة.. كانت "سجدة"، خطيبته ذات الروح الوثّابة والعينين اللتين تريان أبعد من حدود الحاضر، هي مَن أشعلت في قلبه جذوة المغامرة، هي مَن رَأَت فيه قدرةً على التحليقِ بعيدًا عن قفص الواقع الضيق، ونوح التي كانت صداقتهما بمثابة مرساة في بحر الوحدة.

وفي يومٍ كان يونس يخلو بنفسه مع كتابٍ ينتشله من واقعه البائس، لِرحلةٍ بينَ سطور اللُغة.. كانت رائحة العطارة تتراقص في أنف يونس: نفَسٌ من الزعترِ، دِفء قرفة، وعَبير القرنفل التي تعيده دومًا إلى زوايا بيت الطفولة، لكن كل تلك الروائح خفَتَت أمام كلمات الرافعي التي بين يديه، يقرؤها وكأن فيها نبوءة تخصه وحده.. عيناه تعانقان السطور، وأصابعه لا تريد أن تُفلت الصفحات.

في هذه اللحظة، تسلل إلى سمعه صوت خافت، كنسمة مسافرة: — السلام عليكم ...

لَم يرفع رأسه، ولم يلتفت ظنًا أن الصوت جزء من الجو العام للحارة، لكن الصوت تكرر، هذه المرة أقرب قليلًا:

- "إذا سمحت، أريد ربع كيلو من السدر المطحون."

رفع رأسه بتوجسٍ كَمَن يُفاجأ من يقظة الحلم، فإذا بفتاة تقف أمامه، تلتمعُ في عينيها نظرةٌ تختلط فيها الحياء بالفضول.. نهض مسرعًا، وقال وهو يحاول لملمة ارتباكه:

– "آه، المعذرة! لم أنتبه لوقوفكِ... السدر المطحون، حاضر، هل ترغبين في شيء آخر يا هانم؟"

هزّت رأسها ابتسامةً، ثم نظرت إلى الكتاب بين يديه وقالت بهدوء يشبه خُطاها:

– "لا هذا كل شيء، يبدو أنكَ كنت في سفرٍ بعيد.."

تبسّم وهو يلف السدر داخل ورقة بنية اللون: – "نعم هذهِ حقيقة، الرافعي يأخذني إلى حيث لا لغة إلا اللغة... أحيانًا أشعر أن كلماته تمشي بي كما تمشي الريح بورقةٍ في الخريف".

أخذت الطلب وهمّت بالرحيل، ثم توقفت والتفتت له قائلةً:

–"لكن.. لا تنسَ أن الريح تحتاج لِمَن يجمع الورق بعد أن تهدأ".

ومنذ ذلك اليوم، لم تعد زياراتها لشراء الأعشاب فقط.. في أحد الأيام، استعارت الكتاب نفسه، وقررت أن بعد أيامٍ تُعيده، وبينما هي تقرأ، وجدت وبين صفحاته ورقة صغيرة كُتِبَ عليها: "سجدة، بعض القلوب تأتي كالسِدرِ ... تنقّي الوقت من شوائب الوحدة، وتترك في الروح عبيرًا لا يُنسى."

وفي الهامش، كتبت بخطٍ رقيق، يعكس رقتها: "ما كان للسدرِ أن يعرف قيمته لولا ظمأ الروح، وكم من قلبٍ وجدَ في اللقاء ربيعًا لم يعهده من قبل"

لم تُعيد له الكتاب بنفسها وأرسلت به أخيها الأصغر منها، وفي الصفحة الأخيرة وجدها كتبت له

–"السِدر يُستخدم لِتنقية الأجساد.. أمّا كلماتكَ، فَتُنقي الروح مِن الأحزان".

لم يحتج يونس إلى كثيرٍ من الكلام بعدها، تقدم لخطبتها، وكان عقد قرانهما في مسجدٍ عتيقٍ في الحارة، حيث امتزجت رائحة العود بالسدر، وكأن الزمان قرر أن يُوثق حبًا وُلد من حبرٍ، ونما على حياءٍ، واكتمل في حضرة الكلمات.

فهي كانت روحها شفافة كضوءِ القمرِ، وعيناها تشعّان ببريقٍ يُفصح عن طموحٍ يفوق حدود الحارة ضيقًا، ولو كان للسكن والأنس كيانٌ يتجسّد؛ لكانت هي التجسيد بعينه، وبلا ريب.

وجد يونس في حديثها عزاءً وفي قربها أملًا.. كانت سجدة تؤمن بموهبة يونس الأدبية، وتحثه دائمًا على السعي نحو الأفضل، غالبًا ما كانت تحدثه عن ضرورة استغلال موهبته وعدم دفنها في روتين الحياة اليومي.

وذات ليلة، بينما كانا يتجولان على كورنيش النيل، حيث تتلألأ أضواء المدينة المنعكسة على صفحة الماء كنجومٍ سابحة، باحت سجدة ليونس بفكرة الهجرة وقالت بحنوٍ وتشجيع:

- "يا يونس، أنت تستحق حياةً تليق بعلمك وعملك.. هنا، المواهب تخبو كشمعةٍ في مهب الريح.. سافر يا حبيبي، ابحث عن مكانٍ يُقدر فيه جُهدك وكَدَّكَ، وعن جمهورٍ يتذوقُ جمالَ ما تكتبه، وتفانيك في عملك التربوي .. ألَم تكن تقول دائمًا أن الأحلامَ التي لا تُروى؛ تموت عطشًا في صحراء النسيان ؟!"

-

- "هُنا تُوارى أحلامُنا الثرى كلَّ يومٍ بلا جنازةٍ، ولا ترتيلِ وداع، كأنها خطيئةٌ يجب أن تُنسى، نحنُ أحقُّ بها من الضياعِ، وأولى بأن نُعمِّد أرواحنا بها، لا أن ندفنها عطشى تحت ركام القهر.."
- " أنا واثقة باللّـه العلي العظيم؛ فهو وعد الساعيين بأجرٍ عظيم في الدنيا والأخرة، وأنتَ عليكَ السعي، الذي لن يخيب أبدًا بإذن اللّـه".

تردد يونس في البداية، لكنّ سجدة أصرّت، وكانت كلماتها بمثابةِ دفعةٍ قويةٍ - نحو المجهول-.

أقنعته بكلماتها الصادقة، برغبتها في رؤيته سعيدًا، حتى لو كان ذلك بعيدًا عنها.. قررا سويًا أن يبيع يونس بعض كتبه النادرة التي ورثها عن أبيه، والتي ترجع لزمنٍ قديم، وتتخلى سجدة عن قرطٍ ذهبي تملكه، ذكرى عزيزة؛ ليوفرا مبلغًا لا بأس به للمهربِ، ثمنًا لحلمٍ بدا بعيد المنال.. انضم إليهما نوح، الذي كان يائسًا من واقعه، ووجد فيه رفيقًا للمغامرة المحفوفة بالمخاطر، خلاصًا من عملٍ شاقٍ لا يكاد يسدُّ رمقَ العيش.

أمَّا نوح، فباع بعض ممتلكاته القليلة، واستلف من الأهل والجيران، مُعلّقًا آمالًا عريضةً على هذه الرحلة.

توكلوا على اللّـه، وتواصلوا مع سمسارٍ عديم الرحمة، تاجر بالأحلام اليائسة.. ودفعوا له ما يملكون، وكأنهم يقدمون قربانًا لبحرٍ لا يرحم، ثمنًا لوهمٍ سرعان ما سيتحول إلى كابوس، وفي ليلةٍ كئيبة، انضم الشابان إلى مجموعةٍ من البائسين، يحملون أحلامًا مهشمة وقلوبًا قلقة.. صعدوا إلى مركبٍ خشبيٍّ مُتهالك، تنطق أخشابه بما عايَنَه من فزعٍ وصراخ، وقد كان شاهدًا صامتًا على غرق أحلامٍ شبيهةٍ بأحلامهم، ابتلعها البحر ولم يلتفت خلفه.. كان يتأرجح بهم

كقلبٍ خائفٍ.. رُغم أن البحر كان هادئًا في البداية، ولكنه سكونٌ يسبق العاصفة.

--ليلٌ في عُبابِ اليَمِّ—

سَرى المركبُ الهزيلُ فوق صفحةِ الماءِ السوداءِ، كشبحٍ تائهٍ في ليلٍ عميق، يتقاذفه الموجُ بِلا هُدى.

كان الصمتُ سيّد اللحظةِ في الساعاتِ الأولى، صمتٌ ثقيلٌ، لا يقطعه سوى صوت ارتطام الماء بخشبٍ أنهكه الزمن.. جلسوا متراصين، كأنهم أشباحٌ تبحث عن جسدٍ، يتدثّرون ببعضهم من بردٍ لا يرحم، وخوفٍ لا يهدأ.

كلُّ واحدٍ منهم حمل معه شيئًا لا يُقال.. كأبٍ تركَ صغاره على أمل الرجوع، وشاب لفظه الوطنُ فلفظَ معه كلَّ أحلامه، ومُراهق لا يدري لماذا هو هنا! .

جلس نوح بِجانبِ يونس، كتفاهما تتلامسان دون كلامٍ، نظرات نوح مُعلقة بالأُفق، تحاول اختراق العتمة؛ كأن فيها خلاصًا.

أمَّا يُونس، فكان شارِد الذهنِ، يُلَوِك في صدره كلمات سجدة الأخيرة، تلك التي همست بها قبل الرحيل:

- "إن ضاقت بِكَ الأرض، فاركب البحر.. لعلّ الله يخلق لكَ فيه متّسعًا، ولا تجعل للخوف عليكَ سبيلًا؛ فأنتَ في حفظِ اللّـه، وفي قلبي لكَ دعاءٌ لا ينقطع.. كما خلقَ لكَ في قلبي مقامًا لا يزول، وإن سَكنكَ الخَوف، لا تُحاربه وحدك؛ اسجُد للّـه واقترب، وقل له إنَّكَ ضعيفٌ، وسيقوّيك.. ففي السجودِ أمان، وفي القربِ من اللّـه حياة، وكُن قويًّا كما عهدتُكَ، وتذكر دائمًا أن لكَ قلبًا يؤمن بِكَ، وروحًا تُحبك، وتنتظرك بكلِ يقينٍ وشـوقٍ."

مرّت الدقائقُ ثقيلةً كأيامٍ طويلة، والبردُ يتسلّل إلى العظامِ، لكن أحدًا لم يشكُ.

كان البحر من أمامهم، والخذلانِ من خلفهم، والمركب بينهما لا يصلح لشيءٍ سوى أن يكون نعشًا مؤجَّلًا.

لم يتبادلوا حديثًا؛ فالكلمات في حضرة الخوف تفقد معناها، والعيون وحدها كانت تتكلم:

- "هل سننجو؟ أم نكون قصةً أخرى تُروى ولا تُستعاد؟"

أراد يونس أن يقطع هذا الصمت المُمِل بسيفِ الذكريات الحنونة فقال نـوح مُبتسمًا وهـو ينظر نحـو السماء:

- "أتتذكر يا يونس يوم كنا نلعب كرة القدم في الحارة، وكنت ترمي الحذاء بدلًا من الكرة؟"

ضحك يونس ونظر له وقال:

- "وأنت كنت تسقط متعمدًا؛ كي لا تسجل عليّ هدفًا !"

صمت نوح ثم همس وهو يلتفت نحوه:

- "كنت أخشى أن تنقطع صداقتنا إذا فزت عليكَ كثيرًا."

وفجأةً بدأَ الليلُ يُفصحُ عن وَحشِيَّتِهِ.. هبّتْ ريحٌ عاصفةٌ، وبدأَ الموجُ يعلو ويهبطُ بالمركبِ كَلُعبةٍ في يدِ عملاقٍ غاضب.. تعالتْ أصواتُ الركّابِ المذعورين، في تِلكَ اللحظاتِ العصيبة، رأى يونسُ في عيونِ نوحٍ خوفًا لم يرَهُ من قبل، حاول يونسُ أن يُطمئِنَهُ، وقال بذعرٍ:

- "تمسّك جيدًا يا نوح، إن شاء اللّـه سننجو"

فأجابه نوحٌ بصوتٍ مُبحوح:

- "أخافُ يا يونس... أخافُ أن يكونَ هذا هو آخرُ ليلٍ لي."

ازدادَ هياجُ البحرِ، وارتفعتِ الأمواجُ كجبالٍ مُتحرّكةٍ من الظلامِ.. المركبُ الصغيرُ كان يُصارعُ الموتَ ببسالةٍ زائفةٍ، في غمرةِ الفوضى والصراخ، انطلق صوتٌ مُدوٍّ من بينِ الركّاب، كان لشابٍ انزلقَ من حافةِ المركب، وابتلعَهُ الموجُ في لحظةٍ خاطفة.. شاهدَ نوحٌ هذا المشهدَ بعينينِ مُتسعتينِ من الرعبِ.. وازدادَ تمسُّكُهُ بحافةِ المركب، لكنّ قوّتَهُ بدأتْ تَخُور!

--رسالةٌ من الأعماق--

في لحظةٍ مأساويةٍ، انحرفَ المركبُ بعنفٍ بفعلِ موجةٍ عاتيةٍ، وكادَ أن ينقلب.. سادتْ حالةٌ من الهلعِ الشديدِ.. شعرَ يونسُ بيدٍ تَتشبّثُ بذراعِهِ بقوّةٍ مُستميتة، كانت يدَ نوح.. نظرَ إليهِ فوجدَ عينيهِ مُفعمتينِ باليأسِ والوداع.

- "يا يونس... إذا... إذا نجوتَ أنتَ... أوصل هذه... إلى أهلي."

وأخرجَ من جيبِهِ رسالةً مُطويةً بعنايةٍ، دسّها في يدِ يونسِ الرّاجفة.. حاول يونسُ أن يُهدّئَهُ، لكنّ نوحًا كان يعرفُ الحقيقة، وفي اللحظةِ التالية، ضربتْ موجةٌ أخرى القاربَ بعنفٍ أشدّ، واختفى نوحٌ من أمامِ عينيّ يونس. حاول يونسُ أن يمسكَ بهِ، لكنّ الأمواجَ كانت أقوى، وسحبتْهُ إلى الأعماقِ المُظلمة.. شعر يونسُ بقلبِهِ يتمزّقُ ألمًا، صاحَ باسمِ صديقِهِ مرارًا وتكرارًا، ولكن... لا رد!

وبعد ساعاتٍ طويلةٍ من العذابِ والخوفِ، بدأتِ الأمواجُ تهدأُ تدريجيًّا.. المركبُ المتهالكُ كان يطفو على سطحِ الماءِ بصعوبةٍ بالغة، يحملُ على متنهِ عددًا قليلًا من الناجينَ المُنهكين، وكان يونسُ من بينِ هؤلاءِ الناجين.. جسدُهُ مُرتجفٌ وروحُهُ مُثقلةٌ بالحزنِ والذنب.. تناثرت شظايا قلبه على أمواج البحر الغادر، تذكرَ الرسالةَ التي أوصاهُ بها نوح؛ فأخرجها من جيبِهِ المبلّلِ، وضمّها إلى صدرِهِ بقوّةٍ، مُستنشقًا فيها رائحة صديقه المفقود، ظلَّ يبكي كطفلٍ صغير فقدَ أمانه !

وقال من بينَ شهقاته ودموعه:

- أَلَم نتعاهد يا صديقي ألّا تسبقَني إلى الغياب؟

أَلَمْ نُقسِم باللّـه أن نظلَّ معًا، حتى لو خانتنا الدروب وتقطّعت بنا السُبُل؟

فَلِمَ رَحلتَ؟ لِمَ تركتَني أُحاربُ الموج وحدي.

أنا غاضبٌ مِنكَ يا نوح، ولن أسامحك إلَّا برجوعك لي، عُد لي يا صديقي وأنا لن أُفلت يدك أبدًا.. فقط عُد.. أنا ما زلتُ أنتظرُكَ عند حافة الوداع، ما عُدت أحتملُ فُقدانًا آخر، لقد مزقتني الغيابَاتُ حتى جفَّ في قلبي الندى، وأصبح كالصحراء بلا ماءٍ.

--عودةٌ مُثقلةٌ بالذكرياتِ___

بعد أيامٍ قضاها الناجونَ في عرضِ البحرِ، أنقذتهم سفينةُ إغاثةٍ عابرة.. كان يونسُ من بينِ القلائلِ الذين نجوْا، نُقِلَ إلى مركزِ احتجازٍ.. بعد فترةٍ ليست طويلة، أُعيدَ يونسُ إلى وطنهِ، عادَ إلى الحيِّ الشعبيِّ نفسِهِ، لكنّ روحَهُ كانت مُختلفةً، ذهبَ إلى بيتِ نوحٍ، يحملُ الرسالةَ التي أوصاهُ بها نوح.. كانت مقابلةً مُفجعةً، قرأَ لهم الرسالةَ بصوتٍ مُرتجفٍ، ودموعه تسبق كلماته التي يقرأها عليهم.. كلماتٍ مُختلطةً بالندمِ والحبِّ والوداعِ الأخير..

"السلام عليكم..

لم أكن أرجو يومًا أن تصلكم هذه الرسالة، ولا أن أُسطِّرها من الأساس، لكن كما قال المتنبي: «ما كلُّ ما يتمنّى المرءُ يُدركُهُ، تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُّفُنُ».

تمنيتُ... لكن إرادة الله كانت أسبق، وأرجو منكم الدعاء أولًا، ثم العفو، وألا يُثقلكم الحزن عليّ؛ فقد ظننتُ بربي خيرًا، ومن يظنُّ بالله خيرًا لا يخذله الرجاء.

أمي الحبيبة، يا نبع الصبر وملاذ القلب، سامحيني على ما أورثتُكِ من وجعٍ وخذلان. أرجوكِ... لا تحزني، فوالله ما كان في قلبي سوى سعيٍ لحياةٍ كريمة، لكن البحر غدر، والموج لا يعرف حنان الأمهات.. أمي أعلم أنكِ تعبتِ وهدكِ الفراق.. لكنكِ معروفة بصبركِ الجميل، لا تحزني يا أمي إن شاء الله سنلتقي في جنان الخلد.

أختي الغالية... سأشتاق إليكِ كثيرًا، لكن إن غبتُ، أليس قلبي مقيمًا في صدركِ كما وعدتُكِ؟ لا تبكي، لم ألمس ما ادّخرته لكِ، أعلم أنكم

في أمسّ الحاجة إليه الآن. كوني قوية كما عهدتُكِ دومًا، فأمّنا بحاجة إلى سندكِ الآن.

أما أنت، يا صديقي العزيز... فوالله أحببتكَ في الله منذُ لقائنا الأول، ولم تكن صديق عابر، بل أنتَ فقلبي أقرب لي من نفسي، أوصيكَ خيرًا بأمّي وأختي، كن لهما ابنًا وأخًا وسندًا حين تتعثر الأيام.

أوصيكَ بأختي تحديدًا سلّمها بيدك الحانية إلى رجلٍ يخاف الله فيها، وكن لها ذراعًا من مصاعب الحياة ولا تنسني... من دعائكَ، ومن قلمكَ النبيل، واكتب عني في كل مكانٍ، لعلَّ حرفًا يُبقي اسمي حيًّا، ولو بعد الغياب".

بعدَ هذهِ التجربةِ المُرّة، تغيّرَ مسارُ حياةِ يونس، قرّرَ أن يُكرّسَ وقتَهُ لما يحبُّهُ حقًّا

"الكلماتُ والحكايات"

بدأَ يُعطي دروسًا خصوصيةً لبعضِ الطلابِ في الحيِّ.. وتزوجَ من حبيبته ومُساندته الأولى والأخيرة – سجدة – بأقل القليل.. ولكن الكثير كان في الحب، الود، التفاهم.

في أحدِ الأيامِ، أبدى والدُ أحد طلاب يونس إعجابَهُ بأسلوبِ يونسَ في التدريسِ، كان والدُ الطالبِ صديقًا لمديرِ مدرسةٍ خاصةٍ، فاقترحَ والدُ الطالبِ على يونسَ أن يتقدّمَ للعملِ في المدرسةِ.. وبالفعل تقدّم يونسُ للوظيفةِ، وحصلَ عليها.. وجدَها بيئةً مُحفّزةً، ومُلهمة.

وفي أحدِ الدروسِ، قرّرَ يونسُ أن يرويَ لطلابِهِ قصتَهُ وقصةَ صديقِهِ نوح، كان عنوانُ الدرسِ: "الهجرةُ غيرُ الشرعيةِ"

فاختار أن يكون العنوان: "خُطًى بِلا أثرٍ"

وفي نهايةِ الدرسِ، سألَهُ أحدُ الطلابِ عن سبب عودته، فأجاب يونسُ بابتسامةٍ حزينة:

- "يا بنيّ، لقد بحثتُ عن الحياةِ في مكانٍ آخر، ووجدتُ الموتَ يكادُ يبتلعني.. الحياةُ الحقيقيةُ ليست في أرضٍ غريبةٍ."

سأله أحد الطلاب مُستنكرًا:

- "لكن أستاذ.. أليس البحث عن حياة أفضل حقًا لنا؟"

فأجابه يونس بهدوءٍ وتوضيحٍ:

- "الحياة الأفضل لا تباع بكرامة، البحر يبتلع الأحلام قبل الأجساد.. لكن الأرض التي تحت أقدامكم الآن؛ هي الوحيدة القادرة على أن تنبت من جديد إذا سقيتموها بصبركم."

ثم نظرَ إلى الطلاب وأردف:

- "رُغم أنّ الندم شوكة ما زالت عالقة في حلقي، إلّا أن بدون خَوض هذهِ التجرُبة المَريرة؛ ما كنتُ علمتُ قيمة النِعم التي وهبهَا اللّـه لي، مُهمّتُنا هنا، يا أبنائي، أن نصنعَ مستقبلًا أفضلَ لأنفسِنا ولوطنِنا.. لا أن نَهرب منه؛ لتعمير وطن أخر"

في نهايةِ كلِّ درسٍ، كان يقص عليهم قصة كفاح صديقه نوحٍ قبل أن الهجرة، وصولًا لقراءة رسالته بعد أن ابتلعه الموج. كان يُذكّرُ طلابَهُ بثمنِ الأحلامِ الزائفةِ وقيمةِ الوطنِ الحقيقي.

وفي يومٍ بعد عامٍ من الأحداث.. كان يونس مُنكبًا على كتابة شيئًا ما، دخلت عليه سجدة وسألته بلطفٍ وهدوء:

- أراك تكتب من وقتٍ طويلٍ، حتى أنكَ لَم تنتبه لقهوتك التي بردت، هل هذا عمل أدبي جديد، تحضير لدرسٍ؟

رفع رأسه وقال بابتسامةٍ هادئة:

- نعم، هذهِ قصة قصيرة أكتبها أنا، ويقصها يونس على القارئ.

سألته باندهاشٍ واستغراب:

- إذًا وعن ماذا كتبتها، ويونس يُحكيها؟

أعطاها الدفتر، فأخذته منه وقرأت أخر سطور القصة ..

- "نفذتُ وصيتك يا صديقي، وأبشرك أن ما كنت ترجوه؛ تحقق بفضل الله وما أنا إلا أداة استخدمها اللّـه فقط.. فقد تزوجت أختك من رجلٍ قوام، يحبها وهي أيضًا تحبه، بارك اللّـه في مالها فكانت الأمور جميعها مُيسرة والنتيجة كانت رائعة، وأمك ذهبت لقضاء فريضة الحج بالمال الذي أدخرته لهذهِ الخطة.. وقصتك، يتحاكى بها الألاف من القُراء، والتلاميذ.. أما أنا!

فأنا اشتاق إليك في الدقيقة ألف مرة، ولكن ما يهون عليّ هو قدوم نوح الصغير – طفلي الأول - بعد شهرين من اليـوم، سأزرع به جميع خصالك الحسنة، ولن أنساك أبدًا، حتى ألقاك.

- "هناك وجوهٌ لا تُنسى؛ لأنها محفورة في أرواحنا وقلوبنا "

عن طريق صديقٍ وفي، تحوّلتْ قصةُ يونسَ من مأساةٍ شخصيةٍ إلى عبرةٍ للأجيالِ القادمة، وشاهِدًا على أنّ الخُطى التي تقودُ إلى المجهولِ غالبًا ما تتركُ وراءها فراغًا أبديًا، خُطىً بلا أثرٍ.

خاتمة

خُتِمَت الرِحلَة بحكايـةٍ لَـم تُروَ في مواطِـن الأخبـار، بَل كُتِبَـت بماءِ المَـلحِ ودمعِ الفَـقدِ.

مضـوا...

تركوا لَنا أصواتـهم عالقـة في صدر البحرِ، وصورهم تُحاكي زرقة الغيـابِ.

لم يصلوا، لكنهم علَّمونا أن الحلـمَ حين يُغرقه اليأس؛ يصبح قبـــرًا.

سلامٌ علىٰ أرواحٍ هاجـرت ولَـم تُكتـب لها العَـودة،

وعلىٰ مَـن بقيَّ بَعـدها يُكتب... لا ليُحيا، بل كي لا يُنسى.

- تمت بحمد اللّـه

السابع من مايـو لعام 2025

خديجة محمود عوض